الفصل السابع

دور الوثائق والمخطوطات فى الحياة السياسية بالمجتمعات الاسلامية
(دراسة وتحقيق . وتعليق)

أولا : الوثـــــائق :

يمكن ان نقسم الوثائق الى مجموعتين الأولى وتشمل الوثائق الرسمية وهى تعنى كل ما يصدر عن الحكومات والهيئات الرسمية فى الدولة فيما يتعلق بالشئون الداخلية والخارجية ، وما يصرح به أفراد الحكومات وما يحمله مبعوثوها الى رؤساء الدول ، وما يلقيه مندوبوها فى المؤتمرات العامة والخاصة وما يوقعه رؤساؤها أو وزراء مسئولون فيها من اتفاقيات ومعاهدات مع غيرهم من حكومات الدول الأخرى .

ولأهمية الوثائق خصصت لها الدول دورا خاصة للحفاظ عليها وزودتها بالمتخصصين فى الخدمة المكتبية حتى تكون تحت تصرف الباحثين . ولكل فترة من فترات التاريخ وثائقها وأوراقها الرسمية ، ويقول الدكتور حسن عثمان : إن الوثائق فى المعنى العام تدل على كل الأصول التى تحتوى على معلومات تاريخية دون أن ينحصر ذلك فيما دون على الورق ، ولكنها فى المعني الدقيق الذي اصطلح عليه الباحثون فى التاريخ هى الكتابات الرسمية مثل الأوامر والقرارات والفرامانات والمعاهدات والاتفاقيات والمراسلات السياسية .

أما المجموعة الثانية فتعنى الوثائق شبة الرسمية وهى بطبيعة الحال لا تقل أهمية عن الأولى ذلك أنها تتمثل فيما يكتبه الموظفون الرسميون فى الدولة .

وتشمل اوراق الدواوين وسجلاتها ، ومشاريع القوانين ، والقوانين المعمول بها فى

أقسام الدواوين المختلفة ، والمعاهدات ، والنصوص التى تصل الى الباحثين اما مكتوبة أو منقوشة ، بلغاتها الاصلية أو خلال ترجمات لها ومضابط المجالس التشريعية المختلفة ، ومذكرات ويوميات ومراسلات الوزراء وأعضاء الحكومات ، وتصريحات الزعماء السياسيين ، ومؤتمراتهم الى غير ذلك مما يدخل فى عداد الوثائق .

واذا توفرت للباحث مثل هذه الوثائق استطاع أن يقدم دراسة علمية موثقة ، مدعمة بالأدلة التاريخية من مصادر أولية وعلى درجة عالية من الصحة اذا لم تتدخل أيدى الناقلين والناسخين فتغير من حقائقها أو تسقط بعضا من عباراتها مما يؤثر على الرواية التاريخية فيها والحدث التى تحتوية هذه الوثيقة أو تلك .

ووثائق التاريخ الحديث كثيرة وفى متناول الباحثين ، ومن ثم فإن الدراسات التاريخية فى مجال التاريخ الحديث متقدمة بشكل ملحوظ بينما نجد الدراسات فى مجالات التاريخ الاخرى وان كانت تقدمت كثيرا فى هذا القرن الا أن الوثائق ما تزال تحتاج الى الجهد الكبير والتعاون بين الباحثين للكشف عما تحتويه من معلومات وبيانات جديدة مما يساعد فى ايضاح وتفسير كثير من الأحداث المختلفة التى تزال موضع جدل أو خلاف بين المؤرخين .

وعلى الرغم من التراث الاسلامى الضخم الذى بين ايدى الباحثين فإن كثيرا من الوثائق الاسلامية الهامة لم تصل الينا ، وربما يمكن ارجاع ذلك إلى سرعة حركة التاريخ الاسلامى واحداثه الكثيرة المتلاحقة وترامى الدولة الاسلامية ، وكثرة الدول المستقلة قياما وسقوطا مما ادى إلى ضياع ثروة علمية هائلة تمثلها وثائق العصور المختلفة التى تبددت أو ضاعت مع الأحداث الصاخبة المثيرة للتاريخ الاسلامى .

كذلك تعرضت بعض الدواوين التى كانت تحفظ فيها الوثائق الرسمية للحريق وذلك مثل ديوان الكوفة الذى تعرض لحريق اتى على كل مافيه من وثائق واوراق رسمية

وذلك عام ٨٢ هـ / ٧٠١ م .

كما تعرض ديوان الفسطاط لحريق كبير كان سببا فى ضياع كثير من الاوراق الرسمية ، وضياع كثير من وثائق الأمويين فى اعقاب الثورة العباسية وكان الغزو المغولى لبغداد وراء ضياع اكبر ثروة وثائقية وعلمية لما تعرضت لها عاصمة العباسيين من تدمير وتخريب بكل دورها ومكتباتها ودواوينها .

ولحسن الحظ وصل الينا عدد من كتب النظم كما وصلت الى ايدى الباحثين بعض المستندات والوثائق التى تتعلق بالنظم الادارية ، ويشير بعضها الى النظم الاجتماعية وهى وان كانت قليلة الا ان اهميتها عظيمة فيما تقدمة للدارسين من صور تمثل جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى المجتمعات الاسلامية .

وتمثل البرديات وثائق هامة فى تاريخ الحياة الاجتماعية والاقتصادية الاسلامية ويهتم الباحثون بالوثائق البردية اهتماما كبيرا وقد تم العثور على أوارق بردية هامة بالعربية والقبطية فى اقليم الفيوم وهى تتضمن معلومات وبيانات هامة عن الادارة فى مصر وعصر الولاة ، والحياة الاجتماعية فى مصر الاسلامية .

ويركز الباحثون الآن جهودهم من أجل ترتيب وتنسيق هذه الوثائق لاهميتها القصوى فى الدراسة التاريخية ذلك انها تمثل صورة صادقة للنظم المالية والادارية والاجتماعية للعصور التى كتبت فيها .

ومن الاكتشافات الهامة العثور على أوراق الجنيزا Genizas التى عثر عليها فى غرفة ملحقة بالمعبد اليهودى بالفسطاط ، والتى كان الكشف الحقيقى لها فى عام ١٨٩٠ م حيث تناقلتها ايدى المستشرقين وباعة المخطوطات فى القاهرة ومن ثم وصلت اجزاء كثيرة منها الى مكتبات أوربا وأمريكا .

كان اكبر مجموعة من الوثائق الجنزية Genizas Documents هى التى

وصلت الى مكتبه البودليان باكسفورد Bodelian Library والتى باعها الى الحاخام اليهودى " حاخام القدس " سليمان ورثيمر كما ان هناك مجموعة كبيرة ايضا منها وصلت الى فيلادلفيا وثالثة تمتلكها المكتبة العامة فى لننجراد .

اما أهم مجموعة على الاطلاق فهى ما استطاع الرحالة الانجليزى ايلكان أدلر Elkan Adler ان يحصل عليه خلال زيارته لحجرة الجنيزا فى الفسطاط وكان ذلك فى يناير عام ١٨٩٦ م ، وهذه المجموعة توجد الآن فى مكتبة معهد اللاهوت اليهودى فى نيويورك .

ويقول المستشرق اليهودى جويتين أن الوثائق الهامة التى تمثلها الجنيزا قد بيعت علنا بعد الحصول عليها من مقابر البساتين فى القاهرة وذلك عام ١٩٠٨ م .

وقد أدى هذا بالاضافة الى ماسبق ان تعرضت له الوثائق من بيع وشراء الى تفرقها فى مكتبات أوروبا وأمريكا .

ووثائق الجنيزا تقدم صور صادقة للحياة بل الحياة اليومية للمجتمع اليهودى فى القاهرة بما تلقيه من كثير من الضوء على الحياة الاجتماعية والاقتصادية لطائفة من طوائف المجتمع المصرى .

وعلى الرغم من تعرض هذه المجموعة من الوثائق للتلف ، فإن فيها وثائق كثيرة فى حالة جيدة ، ويصف صاحب دراسة فى مجتمع البحر الابيض المتوسط المستشرق اليهودى جويتين Gaiton خطابا حفظ ضمن أوراق الجنيزا أرسل من اليمن الى الهند، ووصل هذا الخطاب الى مصر ليستقر فى هذه المجموعة الوثائقية ورغم الرطوبة وطول الرحلة الزمنية التى قضاها الخطاب فقد بلغت ثمنمائة عام اذا أرسل عام ١١٤٩م فانه لا يزال فى حالة جيدة وخطة واضح مقروء.

ولا تزال الدراسات فى هذا المجال تسير بنشاط حتى تتيح مصادر جديدة لدراسة التاريخ الاقتصادى والاجتماعى لفترة من فترات التاريخ المصرى والاسلامى .

المخطوطـــات :

وللمخطوطات أهمية عظيمة فى الدراسات التاريخية إذ أنها تمثل التراث المكتوب وتغطى المخطوطات العربية وغير العربية مجالات شتى من مجالات المعرفة وتحظى المخطوطات الخاصة بالتاريخ باهتمام كبير ، ومع ذلك فهى لاتزال تحتاج الى اهتمام اكبر من العلماء والباحثين لتقدم فى شكل يمكنهم من الافادة بها وهذا يسمى اصطلاحا بتحقيق المخطوطات .

وتحقيق المخطوطات من الدراسات الشاقة التى تتطلب صبرا ودراسة وخبرة ودراية بأنواع الخطوط وأساليب النساخ على مختلف العصور . وهناك دراسات خاصة بهذا من أهمها ماقدمه الاستاذ عبد السلام هارون بعنوان تحقيق النصوص ونشرها وفيه يبين الخطوات التى يجب أن يتبعها الباحث فى تحقيق ونشر مخطوط .

ولما كانت المخطوطات العربية تنتشر فى مكتبات الدنيا ، فعلى الباحث الذى يود فى تحقيق مخطوط بعينة ان يتحقق من وجود نسخة وحيدة للمخطوط موضوع الدراسة او أن له عدة نسخ فعليه فى هذه الحالة الحصول عليها جميعا ليختار أصلها أصلا للتحقيق .

أما فى حالة كون المخطوط واحداً فسيكون هذا هو أصل للتحقيق ، واما اذا كانت له صور أونسخ مختلفه فعليه أن يختار أكمل وأحسن المخطوطات وأقدمها ان امكن وأقربها الى العصر الذى تعالجه لتكون المخطوطة الأم أو الأصل الأول للتحقيق .

ثم عليه أن يتأكد من نوع الورق ونوع الحبر والخط وهناك وسائل كثيرة تعينه على ذلك كما ان هناك خبراء فى الخط ومعرفة عمر المخطوط ثم يبدأ بعد ذلك فى قراءة النص وضبطه واعداده للنشر . وهو فى ذلك يستعين بالمصادر المعاصرة التى أفاد مؤلفوها من تلك المخطوطة .

وبعد ان يعايش النص ويدرس عصره ومؤلفه ويرى مؤلفاته إن كان كتب غير ذلك المخطوط لتزداد معرفته بأسلوبه وطريقته ، ثم بعد ذلك يمكن له أن يهيئ مخطوطه ويعده للنشر .

ومن واجب كل مؤرخ أن يهتم بالمخطوطات وأن يعمل على نشرها وذلك اسهاما فى نشر التراث المكتوب وجعله فى متناول الدارسين باعتبار ان المخطوطات لها من الأهمية وخاصة المعاصرة للأحداث ما يضفى قيمة علمية هامة على الابحاث والدراسات التاريخية وسوف نتناول بالدراسة لنموذج من العلماء والمؤرخين المسلمين الذين أثروا الحياة الاجتماعية والسياسية فى الوطن العربى وهو سبط المارديني ثم نتناول دراسة احدى المخطوطات وتحقيقها والتعليق عليها وهى بعنوان آداب الملوك وقد كتب هذه المخطوطة المملوك برد بك فى عهد السلطان قنصوة الغورى ١٥٠١ - ١٥١٦ م .

من الفكر الاسلامى الوسيط

دراسة ، تحقيق وتعليق

(١) بدر الدين محمد بن محمد بن احمد شمس الدين الغزال الدمشقى الشهير بسبط المارديني

حياته وعصره :

سبط المارديني ، دمشقى (١) الأصل ، شافعى ، أمه فاطمة ، ويعرف بالماردانى (نسبة لجامع الماردانى) ولد فى ليلة رابع عشر ذى القعدة سنة ست وعشرين وثمانمائة للهجرة بالقاهرة ونشأ بها فحفظ القرآن ، وجوده على امام الازهر بل تلاه عليه ببعض الروايات .

أما صاحب (٢) البدر الطالع فيصف حياة الماردانى بايجاز بأنه ولد سنة ٨٢٦ هجرية بالقاهرة ونشأ بها وأخذ عن القلقشندى وابن المجد والمحلى والبلقينى وابن حجر والمرانى ، ودخل الشام والقدس وحماة وحج وجاور واشتهر بالذكاء وتصدى للاقراء ، وانتفع به الناس فى الفرائض والحساب والميقات والعربية وغير ذلك .

ويترجم خير الدين (٣) الزركلى لعالمنا المارديني قائلا انه عالم بالفلك والرياضيات . اصله من دمشق . ومولده ووفاته بالقاهرة - كان موقنا بالجامع الأزهر .

والواقع ان سبط المارديني لم يلق ذيوع الصيت الذى برز فيه مؤرخو مصر والشام

---

(١) السخاوى ، م . س . ذ ، ص٣٥، حيث يختلف فى تاريخ مولده مع بعض المصادر الاخرى "الباحث"

(٢) محمد على الشوكانى (القاضى ، العلامة ، شيخ الاسلام) (ت ١٢٥٠ هـ) البدر الطالع من بعد القرن السابع ، الطبعة الاولى ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٤٨ هـ ، وكان الشوكانى قاضيا وترجم للماردانى بأنه دمشقى الأصل ، قاهرى ، سبط الجمال عبد الله الماردانى .

(٣) خير الدين الزركلى ، الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، الجزء السابع ، الطبعة الثالثة ، بدون بيانات نشر ، ص ٢٨٢ .

– على سبيل المثال – ففى مصر برز أئمة وعلماء ومؤرخون مثل المقريزى والعينى وابن حجر وابو المحاسن ابن تغرى بردى (١) وعلى ابن داود الجوهرى ، وجلال الدين السيوطى – وهو غريم شمس الدين السخاوى – ومن بعدهم أبن اياس ، وفى الشام كان مؤرخو الشام موزعى النشاط بين عدد من المدن الشامية ، وقد استأثرت دمشق بالنصيب الاوفر منهم (٢) ، وخاصة فى الفترة السابقة على المارديني وكان نصفهم تقريبا من المحدثين والفقهاء ، وقد قدر عددهم بخمسة وثمانين أو يزيد ، وكانت بيئة الشام منسجمة تماما مع واقع الحياة الفكرية الاسلامية وحتى القرن السابع الهجرى تألق علماء ومؤرخون ومن ابرزهم ابن عساكر وابن ابى طى والرازى والمقدسى القيسرانى والعظمى والعماد الاصفهانى وابن شاهنشاه والمقدسى الدمشقى وياقوت الحموى وابن نظيف وسبط ابن الجوزى وابو شامه . وهذا الفيض من العلماء والمؤرخين فى مص والشام ليس كل شئ وليسوا كل الاسماء فثمه من بعدهم جمهور ، اما عالمنا المارديني .. عالم الفلك والرياضيات فقد كتب ايضا فى الميقات مقدمات وعمل متنا فى الفرائض سماه كشف الفرائض وشرحه وشرح بعض مصنفات ابن الهايم وشرح الالفية والجعبرية والرحبية وله فى الحساب الحاوى واللمع ، وفى الجبر والمقابلة

---

(١) وهو ابو المحاسن بن تغرى بردى (١٤١١ – ١٤٧٠ م) ومن مؤلفاته النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، الدليل الشافى على النهل الصافى ، حوادث الدهور فى مدى الايام والشهور ، الرياضيات والموسيقى ، السكر الفاضح (وتوجد نسخة خطية من هذا الكتاب فى مكتبة الاسكوريال تحت رقم ٣٦٧ .

راجع محمد مصطفى زيادة ، (م . س . ٦) من ص ٣٤ – ٣٥ .

(٢) شاكر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون ، دراسة فى تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله فى الاسلام ، الجزء الثالث ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٩ ص ٢١٧ – ٢٢٥ .

مصنفات وفى النحو وشرح الذور والنظر والتوضيح (١)

لقد شهد عصر المارديني محافظة بلاد الشام على وحدتها مع ولائها للسلطان المملوكى فى القاهرة طوعا واختيارا ، وبقى هذا الولاء حتى اواخر عهد الدولة المملوكية وليس أدل على هدوء بلاد الشام التام فى تلك الفترة من رحلة الملك الاشرف قايتباى الى بلاد الشام بدون حراسة سنة ٨٨٢ هـ/١٤٧٧م - وكان سبط المارديني يبلغ من العمر حوالى اربعة وخمسين عاما وكان الناس يتسابقون الى تحيته حيثما حل (٢) . وسواء تعلق الامر بمدرستى مصر او الشام فى فترة سبط المارديني (١٤٢٣ - ١٥٠٦م) قبل انتهاء عصر سلاطين المماليك ، وفى بداية الحكم العثمانى ، فقد حفلت هذه الفترة بنشاط الحركة العلمية نشاطا فريدا ، فما من فن من فنون المعرفة أو لون من ألوان الثقافة الا طرقه وعالجه علماء ذلك العصر . الامر الذى يشهد عليه التراث الضخم من المؤلفات والكتب الذى خلفه لنا عصر سلاطين المماليك والذى لم ينشر منه سوى القليل فى حين مازالت غالبيته مخزونا فى صورته الحالية وموزعا بين دور الكتب فى العالم . على ان المتأمل فى ذلك التراث العلمى الذى خلفه سبط المارديني لابد وان تسترعى نظره حقيقة هامة هى ان مؤلفاته المخطوطة والمطبوعة تعتبر بمثابة موسوعة

---

(١) القاضى العلامة شيخ الاسلام محمد بن على الشوكانى ، البدر الطالع من بعد القرن السابع ، (ترجمة رقم ٤٩٨ ، مرجع سبق ذكره ص ٢٤٢ .

(٢) راجع : محمد ابراهيم الطيبى ، القول المستظرف فى رحلة الملك الاشرف ، مخطوطة رقم ١١٠، دار الكتب بالقاهرة .

- اكرم حسن العلبى ، نيابة دمشق فى نهاية عهد المماليك « عهد سيباى » ، رسالة ماجستير ، « غير منشورة » ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ٥ - ٧ .

- دكتور محمد نصر مهنا ، اداب املوك ، كتبه الملوك برديك من طبقة المستجده الملكى الاشقى ، « دراسة وتحقيق وتعليق » مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٨٦ .

جمعت فأوعت ، فمن كتبه تحفة الاحباب فى علم الحساب – مخطوطة – ، وجداول رسم المنحرفات على الحيطان – مخطوطة فى الميقات ، و « حاوى المختصرات فى العمل بربع المقنطرات » – مخطوطة – فلك و " شرح الرحبية – مخطوطة " ، فرائض و تعليق مختصر على لامية ابن الهائم فى الجبر والمقابلة – .مخطوطة (١) – و " دقائق الحقائق فى حساب الدرج والدقائق – مخطوطة « فلك » و " الدر المنثور فى العمل بربع الدستور – مخطوطة " فلك ، و " الرسالة الفتحية فى الاعمال الجيبية – مطبوعة " فلك و " المواهب السنيه فى احكام الوصية – مخطوطة « فقه » و « القول المبدع فى شرح المقنع – مخطوطة " فى الجبر والمقابلة " و " كفاية القنوع فى العمل بالربع المقطوع – مخطوطة » و « كشف الفوارض – مخطوطة " فى الفرائض" و " شرحه " ارشاد الفارض الى كشف الغوامض مخطوطة » و " اللمعة الشمسية – مخطوطة " فى " الفرائض "، و لفظ الجواهر فى تحديد الخطوط والدوائر – مطبوع " و " هداية السائل الى الربع الكامل – مخطوطة » و « قرة العين – مخطوطة » فرائض و " ترتيب مجموع الطلائى – مخطوطة «فى الفرائض ، و« شرح قول ابن الهائم – مخطوطة ».(٢)

---

(١) خير الدين الزركلى ، الاعلام ، م.س.ذ، ص ٢٨٢ ، حيث ذكر انه يحتفظ لديه بهذه المخطوطة.

(٢) خير الدين الزركلى ، ص ٢٨٢ . حيث يكمن الجهد الخلاق للمؤلف تعريفه للاماكن الموجودة فيها هذه المخطوطات والمطبوعات وهى على النحو الآتى : البدر الطالع ٢ :٢٤٢ وعرفه بسبط المارداني « ولم يذكر وفاته . ومثله الضوْ اللامع ٣٥:٩ وزاد مصححه : « المارداني » نسبه الى جامع المارداني و يذكر الزركلى ان المارديني كان يعرف نفسه بسبط المارديني ، كما هو بخطه ، وكذا ورد ذكره في اجازات بخط الشنشورى وغيره . والكتبخانه ٣٠٨:٣ و ٣١٦ ثم ١٧٩:٥ و ٢٣٨و ٢٤٣ و ٢٤٧ و ٢٦٢ و ٢٦٤ و ٢٦٦ ثم ١٩٧:٧ وخزائن الكتب ٤٠ و ٩٠ والصادقية ، الرابع فى الزيتونه ٣٩٥ وفهرس المؤلفين ٢٦١ ومجلة المجمع العلمى العربى ٢٨: ٤٣٠ و .2.S,(167)216:2 princeton 311,329,558,484:

ونشرة دار الكتب ١:٣٥٩ .

والواقع انه بالرغم من صعوبة تتبع كافة الاضواء التى تلقيها هذه المخطوطات والمطبوعات لسبط المارديني ، الا اننا نلمس أن هذا العالم الاسلامى قد تطرق الى العديد من فروع المعرفة فضلا عن أن الباحث المعاصر يجدها بمثابة موسوعة تجمع بين الفلك والرياضيات والفقه والفرائض والنحو والميقات واللغة العربية ما ينهض دليلا على غزارة مادته وتنوعها وسعة أفقه .

وازاء هذا الانجاز الجاد والحركة العلمية الدائمة كان من الطبيعى ان يترجم له شمس السخاوى مؤرخ القرن التاسع الهجرى المتميز الذى استطاع ان يثرى الفكر التاريخى (١) قائلا :

أنه – أى المارديني – قد اخذ عن ابن المجدى الفرائض والحساب والميقات ولازم دروسه وكذا لازم العلاء القلقشندى (٢) فى الفرائض والفقه ومما اخذ عنه الفصول لابن الهائم ، وتقسيم الحاوى وبهجته والمنهاج والمهذب بل وقرأ عليه البخارى والترمذى

---

(١) شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى ، الضو اللامع ، م.س.ذ (ترجمة ٩٤) ص ٣٥

(٢) أبو العباس احمد القلقشندى ، صبح الاعشى فى صناعة الانشا ، والقلقشندى أشهر من ان يعرف ، وقد طبع الكتاب فى القاهرة فى اربعة عشر مجلدا بين ١٩١٣ ، ١٩١٨ . واستعرض القلقشندى أوضاع مصر فى العصور الوسطى فى كتابه اوضاع مصر منذ الفتح الاسلامى فى القرن السابع الميلادى حتى ايابه فى أوائل القرن الخامس عشر للميلاد ، والواقع انه فيما يتعلق بأوضاع مصر فى العصور الوسطى فانه يصعب تتبع كافة الاضواء التى يلقيها كتاب صبح الاعش ،غير أن اهمية هذا الكتاب من وجهة نظر المؤرخ والباحث المعاصر تكمن فيما عرضه القلقشندى لنظم الحكم والادارة والحياة الاقتصادية والحياة الاجتماعية والسياسة الخارجية . ولمزيد من التفصيل راجع : دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المملوكى فى مصر والشام ، الطبعة الاولى ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٣٢٩ وما بعدها . والحق ان كتاب صبح الاعش هو فى حقيقته موسوعة علمية ضخمة وان ما تحويه مجلداته من مادة غزيرة اعظم من ان يحيط بها فرد واحد مهما بلغت سعة علمه « الباحث » .

وغيرهما وحضر ايضا دروس الفاياتى والبوتيجى والمحلى والعلم البلقينى والشروانى والخواص وقرأ فى العربية على الكريم العقبى » .

ويستطرد السخاوى استكمال الترجمة (١) « لسبط المارديني » مضيفا انه سمع على الصالحى والرشيدى وغيرهم بالقاهرة وابى فتح المراغى بمكه وشمس الدين بن الفقيه حسن بدمياط و اخرين ، وكان اول اشتغاله سنة تسع وثلاثين ، وحج غير مرة ، وجاور فى الرجيبة المزهرية ، وزار بيت المقدس غير مرة آنفا ، منها فى سنة تسعين مع أبى البقاء بن الجيعان ، و دخل الشام (٢) مرتين وحماه فما دونهما وتميز فى الفنون .

حفل عصر المارديني من جانب المؤرخين باللوم والنقد - وربما النقد الجارح - ان كان بمثابة اتجاه عام بين علماء ومورخى القرن التاسع الهجرى حتى ان السخاوى قد

---

(١) السخاوى ، الضوء اللامع ، م. س. ذ. (ترجمة ٩٤) ص ٣٥ .

(٢) سبقت الاشارة الى انضمام الشام لمصر فى العصر المملوكى ، وقد رحب اهل الشام كما يجمع مؤرخو القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، والقرنين الثامن والتاسع الهجريين فى بلاد الشام بانضوائهم تحت حكم المماليك وتفسير ذلك هو الخطران الجسيمان حيث كان الصليبيون قد سيطروا على اجزاء كثيرة من بلاد الشام ودمر التتار بغداد واجتاحوا بلاد الشام ، وتأسيسا على ذلك كان محتما ان يدين الشعب للمماليك بالولاء باعتبارهم القوة الاسلامية التى استطاعت دحر هذين الخطرين ، وبعد طرد الصليبيين نهائيا من جزيرة ارواد مقابل طرطوس - وهى آخر معاقلهم - سنة ٧٠٢ هـ/ ١٣٠٢م لم ينقطع خطرهم ولذلك بادر المماليك الى فتح جزيرة قبرص سنة ٨٢٩هـ/ ١٤٢٦- أى بعد ولادة سبط المارديني - ونفس الامر بالنسبة للتتار حيث عادوا بعد هزيمتهم فى عين جالوت الى بلاد الشام واحتلوا حلب ودمشق اكثر من مرة طيلة القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وعلى ذلك فقد كانت دولة المماليك هى الدرع الذى يرد عن المسلمين فى مصر والشام الخطر الخارجى والواقع ان نظره على مراحل تطور الفكر العربى وصولا الى التاريخ المعاصر تؤكد حرص مفكرى الشام على تأكيد علاقة الاسلام بالعروبة دينا ولغة وتاريخا « الباحث »

وراجع : اكرم حسن العلى ، مجع سبق ذكره ، ص ٥ ، ٧ .

تعرض لأئمة العلم فى القاهرة ومن بينهم ابن خلدون والمقريزى والعينى وابن تغرى بردى والسيوطى الذى لم يقو على السكوت وسخر قدراته للرد على السخاوى ، فلقد اعتبر السيوطى استاذه السخاوى ظالما متجنيا حيث ذكر مساوئ العلماء والائمة والفقهاء وشيوخ الاسلام فى ترجماته لهم فى الضو الامع ، كما وصفه بأنه كان يسخر ويستهزئ بل يتخيل كثيرا مما ورد عن هؤلاء الائمة والشيوخ .

وفى هذا السياق لم يسلم سبط المارديني من نقد السخاوى (١) ،لكن نقده كان أقل حده حيث يصف المارديني قائلا : « ... كان حسن العشرة والتواضع ، والرغبة فى

---

(١) يفسر البعض اسباب المرارة الطاغية على كثير من تراجم السخاوى فى معجمه الكبير عدم توفيقه فى الحصول على اى من وظائف التدريس بالقاهرة وبقائه طالبا زمنا حتى آخر ايامه فكتب لنفسه ترجمة ذاتيه فى اكثر من ثلاثين صفحة من كتابه الضوء اللامع ، فى حين ان معاصره السيوطى عاش جماعا للوظائف من تدريس ومشيخات حبا فى الصيت والمال فلا عجب ان يصف السيوطى السخاوي باقذع العبارات ، قائلا : ان السخاوى جاهل متخرق لا يرعون عند الصواب اذ أثر ، فاذا اشرت الى كنوب احمق فالى السخاوى فهو كذاب ، آشر «بل انه اتهمه بالكفر والجهل ومجافاة العلم ، وليس من العقل ان يقبل الباحث المعاصر كل هذه التهم التى وجهت من السيوطى الى استاذه وزميله السخاوى « الباحث » – وتجدر الاشارة بهذه المناسبة لمحمد بن طولون الدمشقى آخر معاصرى ابن اياس من المورخين ، وقد ولد ابن طولون سنة ١٤٧٥هـ بصالحية دمشق وتعلم على شيوخ دمشق وأجازه السيوطى اجازة بالمكاتبة وقرر ابن طولون فى ترجمته النهائية ان عدد شيوخه بلغ خمسمائة وان العلوم التى اشتغل بتحصيلها تزيد على اثنين وسبعين علما ، ومنها الحديث والكلام والاصول ، والنحو والصرف ، والمنطق والطب ، والهندسة ، والمعانى والبديع والحساب والفرائض والعروض والفلك والميقات واللغة والتاريخ ولذا يعتبر ابن طولون الدمشقى كالسيوطى من حيث مشايخه وعلومه حتى انه وصف بأنه سيوطى الشام ، وتوفى ابن طولون سنة ١٥٤٥م ويعنى ذلك انه يعتبر من معاصرى عالمنا سبط المارديني وان كان قد وافته المنية – أى ابن طولون – بعد المارديني بما يقرب من تسعة وثلاثين عاما ، راجع : محمد مصطفى زيادة ، المؤرخون فى مصر فى القرن الخاس عشر الميلادى ، م.ذ.س. ، ص ٧٦ – ٨٠ .)

الممازحة ، والنكتة ، والنادرة ، وامتهان نفسه ، وترك التأنق فى أمره... » ، وبالرغم من أن السخاوى لم يعجب أحدا من سابقيه أو معاصريه فأن ترجمته لسبط المارديني وخاصة فيما يتعلق بالثروة العلمية العظيمة والمتعددة الاهداف والفوائد التى تركها لنا جاءت منصفة لهذا العالم الذى كان قابعا فى الظل حتى احتفل به المجلس الاعلى للعلوم بدمشق ، حيث يصف السخاوى سبط المارديني بأنه قد اشير اليه بالفضيلة فتصدى للاقراء وانتفع به الفضلاء فى الفرائض والحساب والميقات والعربية ونحوها وممن اخذ عنه النجم بن حجى ، وصار باخره فريدا فى فنونه ، وباشر الرياسة فى اماكن ، بل وتصدر بجامع طولون برغبة نور الدين بن النقاش له عنه وعمل فيه اجلاسا فى صفر سنة تسعة وسبعين ، وكتب فى الميقات مقدمات جمة تزيد على مائتين منها المنصورية ، كأنه عملها لجماعة المنصورية ، السر المودوع فى العمل بالربع المقطوع وعمل متنا فى الفرائض سماه كشف الغوامض واختصره فى نحو نصف حجمه ، بل وشرحه ، وشرح فيه كلا من تصانيف اربعة لابن الهائم ، الفصول والتحفة القدسية والمقنع ، وسماه « القول المبدع » ، والالفية المسماه كفاية الحفاظ مع توضيح للالفية ايضا ، وكذا شرح الجعبرية والرحبية والاشفهية ولكنه لم يكمل ، ومنظومة الموقف الحنبلى ، والحوفى ، ورتب مجموع الكلائى مع اختصاره ، والاتيان فيه بزوائد مهمة وله فى الحساب مقدمة سماها تحفة الاحباب فى الحساب المفتوح واختصرها وشرح فيه من تصانيف ابن الهائم الحاوى ، واللمع فى الجبر والمقابلة ثلاثة شروح على الباسمينية . وشرح فى النحو والشذور ، والقطر ، والتوضيح ولكنه لم يكمل ، وجرد شرح شواهده من شواهد العينى (١) الى غير ذلك من المهمات ، ونازع فى مسألة الجهر بالتسميع ، وخالف فى ذلك الزين زكريا ، وتنافس معه بسببها ، ولذا انتقده فى

---

(١) العينى ت ١٤٥١ م ومن مولفاته عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، عمدة القارى فى شرح البخارى .

شرحه للفصول ، ونازع ابن السيد عفيفى الدين فى دعواه تقديم آذان المغرب قبل تمكن الغروب ، وكلم المحتسب بكلمات مناسبة ، كما انه دار بينه وبين ابن عاشر شيخ التربة الاشرفية قايتباى مناقشات وباسمه بعض وظائف الحنابلة .

وعموما فان عصر المارديني كان يتسم بظواهر عديدة لعل ابرزها المؤلفات الكثيرة فى التاريخ والتراجم والعلوم ، فالى جانب المارديني يأتى ابن طولون الدمشقى فى فترة معاصرة ولاحقة له مباشرة (١٤٧٥ - ١٥٤٥م) وعلى سبيل المثال وهو آخر معاصرى آبن اياس من المؤرخين - قدكتب هو الآخر فى الطب والهندسة والحساب والعلوم والفلك والفرائض والميقات والتاريخ والفقه والتصوف ، واجازه مشايخه فى بعض العلوم ، ومؤلفاته واردة فى ترجمته الذاتيه وفى غيرها من المراجع التى اوضحت اسهاماته الكثيرة فى مختلف العلوم (١) ، ويرى فريق من الباحثين ان مؤلفات غالبية مؤرخى القرن الخامس عشر الميلادى فى مصر ليست سوى ذيول وتكملات لكتب سبقتها زمنيا بكتاب السخاوى التبر المسبوك فى ذيل الملوك وهو تكملة لكتاب المقريزى (كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك) وكتاب ابناء الغمر فى أبناء العمر لابن حجر وهو فى الواقع ذيل لكتاب البداية والنهاية لابن كثير ، وكتاب تاريخ العمر للسيوطى هو تكملة للكتاب السالف الذكر لابن حجر . غير ان عالمنا المارديني قد القى الضوء فى مخطوطاته القيمة على العديد من الموضوعات العلمية فى الفلك والرياضيات مما جعله يتصف بصفات المبتكر والمبدع بعيدا عن حب الصيت ومادمنا بصدد مناقشة سمات عصر المارديني ، تجدر الاشارة الى ان مؤلفات هذا العصر - وخاصة التاريخية منها - يميل اسلوبها الى استخدام العامية المنثورة مثل كتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر

---

(١) اسم هذه الترجمة الذاتية ، الفلك المشحون فى احوال محمد بن طولون ، وهى مطبوعة بدار مكتبةالقدس والبدير بدمشق سنة ١٣٤٨ هـ : راجع : محمد مصطفى زيادة ، م.س.ذ. ، ص٧٦ - ٨٠ .

والقاهرة ، لجمال الدين ابن المحاسن بن تغرى بردى ، وكتاب « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » لمحمد بن احمد بن اياس .

خاتمـــة :

حاولت جهدى فى هذا البحث الموجز ان أصف النواحى المختلفة لحياة وعصر العالم العربى سبط المارديني وان أحلل مادتها فى تعقيب نقدى على ماجاء من أخبار العلماء والمؤرخين من ثنايا تراجمهم ، والنتيجة التى خرجت بها أن حياة هذا العالم العربى قد حفلت بنتاج علمى يمثل ثروة عظيمة أبطنتها مؤلفاته المخطوطة التى توجب العناية بها لابرازها وللاستعانة بها ، وبالرغم من شدة الخصومة والتحاسد التى يستشفها الباحث من معاصرى المارديني – القرن الخامس عشر الميلادى الا أنه – أى سبط المارديني – قد كان اقل علماء القرن الخامس عشر حسدا وغيرة ومع ذلك فقد ظل قابعا بشموخ فى قواميس التراجم لاشهر الرجال ولم يذع صيته رغم ما أوتى به من العلم والكفاءة والمهارة ، فتقدم عصره ، وهو ماينهض دليلا على وجود فيض من العلماء العرب من بلاد الشام ومصر ممن تركوا آثارا واضحة فى تاريخ العرب وسيطه وحديثه الامر الذى يستلزم الاهتمام من جانب الباحثين متعددى التخصصات Multidsciplened للتنقيب فى ماض الامة الاسلامية لاخراج كنوز العلماء العرب الدفينة فى دياجير قواميس التراجم لتعم بها الفائدة ويتواصل عطاء الاجيال العربية المتعاقبة ، وتحقيق مثل مخطوطات المارديني لتخرج فى صورة صحيحة تليق بها وتحفظ مظاهر الحضارة الاسلامية الامر الذى يحتاج الى تعاون الباحثين بصرف النظر عن جنسياتهم باعتبار ان التراث الاسلامى هو تراث للانسانية كلها .

أسأل الله تعالى العون والتأييد وان يتقبل

عملنا خالصا لوجهه الكريم ..

(٢) آداب الملوك

كتبه الملوك برد بك
من طبقة المستجدة الاشرفى

مقـــدمة :

سيظل إحياء التراث الاسلامى من الأعمال الأكاديمية الهامة من جانب المؤرخين والباحثين .

وإلقاء الاضواء على المخطوطات العربية وبعثها من مواتها الى دنيا الأحياء هو - بالمقام الأول - واجب أساسى للعلماء والباحثين من اجل تقديمها فى صورة تتيح للدارسين وطلاب العلم فائدة أوسع ، بالرغم مما يكتنف هذا العمل من جهد ومشقة ، وما يستلزمه من مثابرة وصبر وتدقيق وتوثيق .

والتراث الاسلامى من الأجيال الماضية له مكانته ومنزلته الكبيرة فى عقل ووعى ووجدان الأمة الاسلامية ، وهو مألوفها ومخزونها الفكرى ، ووعاء ذكرياتها وتاريخها . فيه تجد الأمة جذورها ، وله تهفو ، وفيه تستلهم ، وله تمنح الولاء وتفخر بصفحاته . التراث هو الجذور الفكرية لعقل الأمة ، وهو الروح السارية فى هذا العقل والوجدان والذى سيظل يسهم فى تشكيل الوعى والانتماء إن بالسلب أو بالايجاب .

والمخطوط الذى نعرضه يعتبر سجلا حافلا بأحداث التاريخ المصرى عشية الحكم العثمانى ، وهو من المصادر القليلة التى ترصد واقع المجتمع قبيل القضاء على الدولة المملوكية .

ومن نافلة القول أن تاريخ مصر - على مر مراحله - قد حفل بمصادر تعتبر بحق قمة - وإن أهملها المؤرخون والباحثون - .

ويحمل المخطوط المذكور عنوان : " آداب المملوك " وقد عثرت عليه بالمكتبة العامة باستامبول Top kapi Sarary ، فينتمى الى مجموعة المخطوطات الإسلامية النادرة فى هذه المكتبة . وهو دون رقم . وهو مخطوط وحيد ، فى حالة جيدة وكتوب بخط واضح . يقع فى تسعة عشر صفحة من القطع المتوسط . وتوجد صفحات خالية من الكتابة بالإضافة إلى بعض الصفحات ، ليس بها سوى جمليتن او ثلاث ، كما هو واضح فى النص . ومع ذلك فانه لا يخلو من كثير من التعقيدات الخاصة بالنسخ والنقل وقد كتبه (١) المملوك برد بك ، من طبقة المستجدة الملكى الأشرفى . والمؤلف مجهول .

وقد إلتزم الناسخ عبر صفحات المخطوط بخاصية هامة ، وهى الحفاظ على التنسيق طوال صفحاته التسع عشر ، غير أن الناسخ قد نسى أو أغفل وضع التاريخ الهجرى ، والشئ الوحيد الذى ذكره الناسخ فى نهاية المخطوط هو هذه العبارة : «برسم خزانة مولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قنصوه الغورى أعز نصره » . وتأسيساً على ذلك تكون هذه المخطوطة من نسخ مطلع القرن السادس عشر الميلادى .

وترجع أهمية هذا المخطوط النادر – من وجهة نظرى – الى الفترة الزمنية التى

---

(١) إزدادت أهمية الكتابة فى عصر الأيوبين ثم فى عصر المماليك عما كانت عليه فى العصور السابقة حيث أولى السلاطين المماليك عنايتهم للديوان وأناطوا وظائفه الى القضاة والكتاب الاكفاء . راجع دكتور عبد المنعم ماجد ، الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى ، القاهرة بدون تاريخ اصدار ، ص ٣٥ . ويروى القلقشندى (عصر المماليك) ويشرح هنا أهمية أصحاب ديوان الانشاء – أى الكتابة – قائلا : " ومرتبته فى زماننا أرفع مرتبة ومحله اعظم محل ، إليه تلقى أسرار المملكة وخفاياها ، وبرأيه يستضاء فى مشكلاتها ، وعلى تدبيره يقول فى مهماتها ، وإليه ترد المكاتبات ، وعنه تصدر ، وفى ديوانه تكتب الولايات السلطانية كافة ، ويقوم توقيعه على القصص فى نفوذ الاوامر مقام السلطان ، وجميع ما يعلم عليه السلطان ، ومن جليل وحقير فى مزرته حتى ما يكتب من ديوان الجيش من المناشير وما يكتب من ديوان الوزارة وديوان الخاص وغيرها " . راجع : القلقشندى ، صبح الاعشى فى صناعة الانشاء ، جزء (١) ، القاهرة ، نشر وزارة الثقافة والارشاد القومى ، بدون تاريخ إصدار ص ٥٤ ، ٥٦ ، ٩١ ، ١٢٨ .

حكمت فيها مصر من جانب المماليك الجراكسة ، فى عهد السلطان قنصوة الغورى ١٥٠١ - ١٥١٦ م (١)

هذا المخطوط فى الأدب السياسى المصرى يلقى الأضواء حول تفسير ظاهرة السلطة وتطوراتها خلال مراحل تطور الفكر السياسى الاسلامى الذى شهد فترات من القوة والضعف غير أنها - أى ظاهرة السلطة - بقيت من حيث النظرية كما هى ، ولم يخرج فقهاء المسلمين فى تعريفاتهم لظاهرة السلطة عن الفكرة المثالية التى ظهرت بها فى صدر الاسلام . ومع ذلك فقد حاولوا تطويع الفكر لمختلف الظروف التى عايشوها . فكان للمسلمين من أهالى البلاد المفتوحة وممن دخلوا فى الاسلام ، إنجازات حضارية عظيمة أسهمت فى تأصيل الفكر السياسى الاسلامى غير أن الفرصة لم تسنح لذلك الفكر فى أن يبدع ويجدد فكان تطبيقه بشكل مختلف عما أراده له مفكروه وواضعوا أسسسه ، فعندما سقطت بغداد وتلاشت هيئة الخلافة تدريجيا ظهرت صحوة الاقاليم الاسلامية ، وقامت الحكومات اللامركزية (٢) وتنافست من أجل الابقاء على الحكومة الاسلامية ، فكانت محاولات المماليك بالابقاء عليها .

---

(١) وقد أعقبه طومان باى الثانى ١٥١٦ م - ١٥١٧ م وكان هذا الأخير آخر سلاطين دولة المماليك الجراكسة ، وتنقسم سلاطين دولة المماليك الى : سلاطين دولة المماليك البحرية وسلاطين دولة المماليك الجراكسة وتضم الأولى السلطنة المملوكية حتى الناصر محمد ، ثم عصر الناصر محمد ، ثم اولاد الناصر محمد وتشمل هذه الفترة من ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م - ٧٨٣ هـ / ١٣٨١ م ، ثم أحفاد الناصر، وتضم الثانية سلاطين دولة المماليك الجراكسة (١٣٨٢ م - ١٥١٧ م) .

(٢) استمرت مرحلة اللامركزية فى تطور مراحل النظام السياسى الاسلامى - ستة قرون وسبقتها ثلاثة مراحل ولحقتها مرحلتين : أما الثلاثة مراحل السابقة على مرحلة اللامركزية فهى : المدينة الدولة١ هـ /٦٢٢ م - ١١ هـ / ٦٣٢ م وهى اهم مراحل تاريخ الفكر السياسى الاسلامى حيث حكم الوحى سلوك المسلمين وحدد لهم قيمهم الجديدة ، أما المرحلة الثانية فهى مرحلة الدولة الامبراطورية ١١هـ / ٦٣٢ م - ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م، وتشمل عصر الخلفاء الراشدين حيث بدأت الأمة الاسلامية تواجه مشكلاتها السياسية ، وتوجد الحلول المناسبة لها وذلك بعد انقطاع الوحى وغياب الرسول - صلى الله عليه وسلم ، - والمرحلة الثالثة هى فترة الدولة العباسية . ثم المرحلة التى تدخل

وفى اطار الجهود المبذولة لإلقاء الضوء على المخططات المملوكية فى هذه الفترة ، فقد اقتضت الأمانة العلمية كباحث أن أتتبع مجموعة الوثائق فى العصر المملوكى بالمتحف البريطانى فى لندن ، ومكتبة جامعة كامبردج بانجلترا ، وأرشيف وزارة الاوقاف بالقاهرة، ودار الوثائق القومية بالقلعة للوقوف الى أى من المخطوطات يتعلق بالأدب السياسى فى هذه الفترة ، فلم أعثر على أى مخطوط عن الأدب السياسى المصرى فى فترة حكم المماليك ، وانما توجد وثائق هامة أخرى تلقى الضوء على تاريخ مصر فى عصر المماليك وتصور الأحوال الاقتصادية والاجتماعية ، وأهمها وثائق الاستبدال والبيع (١) .

ورغم خطورة الاعتماد على أصل واحد فى التحقيق ، ورغم ما يكتنف العمل فيه من صعوبات ومشاق ، فاننى رأيت أن الوقت قد حان لاخراج هذا المخطوط الى النور . ذلك أنه يمثل مصدراً خصباً وغنياً بالمعلومات الأولية لعصر المماليك وتفسير ظاهرة السلطة فى مصر فى مطلع القرن السادس عشر الميلادى ١٥٠١ - ١٥١٦ م .

وتجدر الاشارة إلى أن الغموض لا يزال يكتنف المؤلفات التاريخية العربية فى فترة حكم المماليك عموما ، وخاصة فيما يتعلق بتطور الفكر السياسى وتفسير ظاهرة السلطة والأحوال السياسية .

= (دراسة هذا المخطوط وتليها المرحلة الخامسة التى يطلق عليها مرحلة التفتت وتمتد منذ نهاية القرن الخامس عشر حتى بداية القرن العشرين وتشمل نشأة الدولة العثمانية وطابعها با تحوية سلطة الدولة من ضرب القوى الشيعية وأخيرا تأتى المرحلة الحديثة والمعاصرة والتى يطلق عليها المرحلة القومية . راجع فى تفصيل ذلك دكتورة فتحية النبراوى ، دكتور محمد نصر مهنا ، تطور الفكر السياسى في الاسلام ، الجزء الثانى ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الاولى ١٩٨٤ ، ص ١٥ - ١٨

(١) ومن أمثلتها الوثيقة رقم ٥٩ بتاريخ ٢٠ رجب ٩١٢ هـ ، ووثيقة بيع بتاريخ ٢٥ شوال سنة ٨٧٤ هـ فى دار الوثائق القومية بالقاهرة ، وراجع ايضا الدكتور محمود عباس حموده ، المدخل الى دراسة الوثائق العربية ، القاهرة ، دار الثقافة ١٩٨٠ ، ص ١٩٨ - ٢١٣ .

الحياة الفكرية والقضاء فى عصر المماليك :

على الرغم من االتـفكك السـيـاسى والاخـتـلاف المذهبى الذى عـانت منه الدولة الاسلامية برمتها ، فان الحياة الفكرية فى مصر بصفة خاصة ، قد انتعشت إلى حد كبير نتيجة لتنافس الفرق المختلفة والمذاهب المتعددة ، مما نتج عنه ثراء فكرى سياسى متميز شهدته مصر فى العصور الوسطى ، بدليل أن المفكرين المسلمين قد أقاموا مراكز اشعاع فكرى ، وكان للخلفاء والحكام دورهم فى اثراء الحياة الثقافية فى العصور الوسطى ، واهتموا بعلماء المسلمين ، وتنافست العواصم الاسلامية فى القاهرة وبغداد ودور العلم ودور الحكمة لتأصيل الثقافة الاسلامية ، وصقلها ، ومن ثم كانت النهضة العلمية والثقافية التى اتسمت بها الحياة الفكرية فى العالم الاسلامى وقتئذ .

ومن منظور تاريخى فانه قد أخذ بمبدأ استخدام المماليك ولاة مصر الاسلامية من الطولونيين الى الاخشيديين ثم الفاطميين - ولما آلت السلطة الى الايوبيين ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م نهجوا نفس السبيل وأكثروا من شراء المماليك الترك ، وبنيت لهم الثكنات بجزيرة الروضة ، واطلق عليهم اسم " المماليك البحرية " . ومنحت لهم الفرصة بعد ذلك فى تولى الحكم فى مصر .

ويعد السلطان قلاوون ٦٧٩ هـ / ١٢٧٩ م من أعظم (١) سلاطين دولة المماليك حيث كون فرقة جديدة من المماليك ، كونها من الارمن والجركس ، وعرفت تلك الطائفة باسم " الجراكسة " . وكانت الغالبية العظمى من المماليك الذين جلبهم الايوبيون وسلاطين المماليك من بعدهم الى مصر تأتى من شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز وآسيا الصغرى وفارس وتركستان وبلاد ما وراء النهر ، فكانوا خليطا من الأتراك والجراكسة

---

(١) راجع فى تفصيل ذلك : دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، الايوبيون والمماليك فى مصر والشام ، والقاهرة ، دار النهضة المصرية ، ١٩٧٦ ، ص ١٩٢ - ١٩٧ .

والروم والروس والأكراد ، فضلا عن أقلية من مختلف البلاد الأوربية .

والمماليك عبارة عن طائفة من الأرقاء المشترين بالمال ، ثم كثر عددهم وحكموا مصر، ووضعوا أيديهم على بلاد أخرى خارج مصر ، واحتفظوا أثناء حكمهم لمصر بشخصيتهم ولم يختلطو بأى عنصر من سكان مصر .

وقد انقسم المماليك فيما بينهم إلى أحزاب متطاحنة ، غير أن هذا الانقسام الداخلى لم يؤثر على وحدتهم كطائفة أو مجموعة إزاء العالم الخارجى الذى كانوا يواجهونه كعصبية واحدة وهذا يفسر قوتهم وانتصاراتهم الحربية فى مواجهة العدو المشترك .

وكان باب الترقى فى حكومة المماليك مفتوحا أمام من تثبت كفايته فى العمل ، فيترقى من مملوك بسيط الى أمير حتى يبلغ عرش السلطنة ، ولم يكن السلطان إلا واحداً من أمراء المماليك قدموه على انفسهم لقوة شخصيته ، ووفرة أنصاره وكثرة جنده ، وقدرته على التغلب على المنافسين من الطامعين فى العرش ، وبذلك كان مملوك اليوم هو سلطان المماليك فى الغد .

وقد تعهد السلطان الظاهر بيبرس بإصلاح وتعديل النظام القضائى وفى سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٤ م ، عين أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة وكتب لكل منهم تقليدا ، واجاز لهم أن يولوا نواباً عنهم فى أنحاء الديار المصرية . وقد امتد اختصاص قاضى القضاة وقضاة الأقاليم ، وزاد نفوذهم حتى تولى القاضى تقى الدين ابن بنت الأعز الوزارة بجانب القضاة ، ولما صرف عن الوزارة بقى فى يده سبعة عشر منصباً من أهمها : قضاة القضاء بالديار المصرية ، خطابه بالجامع الأزهر ، نظر الخزانة ، نظر الأحباش ، مشيخة الشيوخ ، والتدريس فى عدة مدارس .

وكان للجيش المملوكى ثلاثة قضاة اختصوا بشئون العسكر . وكان كل منهم يعرف باسم " قاضى العسكر " وكانوا يفصلون فى القضايا الخاصة بالعسكر والمدنيين ، ويلى قضاة العسكر فى الأهمية مفتوا دار العدل ، وهم أربعة ، يمثلون المذاهب الأربعة

وكانو لا يفصلون فى خصومات المدنيين والعسكريين ، بل كانوا يفسرون حكم الشرع فيما يسألون فيه من المسائل ، كل على حسب مذهبه .

وكانت جلسات المحاكم فى دولة المماليك تعقد علانية ، ويحضرها من شاء من الناس ، وكانت تنعقد فى المساجد ، وأحيانا فى دور القضاة الخاصة ، إذا لم يكن هناك دور معينة للمحاكم . واذا جلس القاضى للفصل فى الخصومات ، رتب القضايا بحسب ظهور الخصوم حتى لا يتقدم أحد على الآخر ، لسمو منزلته أو علو مقامه أوثرائه .

وعموما فقد كان فى مصر فى دولة المماليك نظام قضائى ممتاز ، وعرف القضاة بحسن السيرة وطهارة الذمة ، واحترامهم لمكانتهم وعدم قبولهم للتدخل من جانب أحد فى أعمالهم مهما علا مركزه ، حتى أنهم كثيرا ما كانوا يرفعون استقالاتهم من مناصبهم اذا هددوا فى كرامتهم ، أو اعتدى أحد على استقلالهم ، كما انهم كانوا لا يقبلون الرشوة ولا الهدية ، ولذلك كانت لهم مكانة اجتماعية مرموقة فى نظر السلاطين والأمراء وجميع طبقات الشعب (١) .

وكان السلطان الظاهر بيبرس أول من تولى النظر فى المظالم من سلاطين المماليك ، وهو الذى أقام لذلك داراً للعدل سنة ٦٦١هـ / ١٢٦٢م ، وكان يجلس بها للفصل فى القضايا يحيط به قضاة المذاهب الأربعة وكبار موظفيه ، وظلت دار العدل مقراً لمحكمة المظالم التى كانت تعقد برئاسة السلطان قلاوون سنة ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠ م . وبنى الايوان واتخذ منه مقراً لهذه المحكمة .

---

(١) ولعل أوضح الامثلة على ذلك القاضى عبد العزيز المعروف بعز الدين عبد السلام (سلطان العلماء) والقاضى تقى الدين عبد الرحمن الشافعى ابن بنت الأعز ، الوارد ذكره فى المتن: م. س. ذ. وأيضا على ابراهيم على ، مصر فى العصورالوسطى من الفتح العربى الى الفتح العثمانى ،القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥١ .

بسم الله الرحمن الرحيم

النص مع الضبط والتحقيق

/ فيقول ان الله تعالى انما يعطى المملكة من اصطفاه ورآه اهلا لدعائه . قال الله تعالى « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء [1] وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شئ قدير » . فينبغى للملك ان يعرف قدر نعمة الله عليه فى الولاية وعظم شره فانها نعمة ان قام بحقها نال من السعادة ما لا نهاية له ولا سعادة بعده علي شرفها ، وعظم قدرها ، وحد خطرها ما روى عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « عدل السلطان يوما واحد أفضل من عبادة سنة » . وقال – عليه السلام – : « إذا كان يوم القيامة لايبقى ظل ولا ملجأ الا ظل الله ، ولا يستظل بظله الا سبعة اناس سلطان عادل فى رعيته » . وهو اول سبعة الذين ذكرهم الله تعالى، وأقربهم السلطان العادل . قال – عليه السلام – : « والذى نفس محمد بيده انه ليرفع عمل السلطان العادل إلى السماء من العمل مثل عمل حملة الرعية ، وكل صلاة يصليها تعدل سبعين ألف صلاة » . فإذا كان الأمر كذلك فلا نعمة أجل من إعطاء درجة السلطنة فتكون ساعة من غيره تعدل جميع عمر غيره ، فينبغى للملك الاعتناء بالعدل ليبلغ به الى النعيم ويجتمع به بين الدنيا والدين .

/ قال تعالى :

« ان الله يأمر بالعدل والاحسان » . فيقال : ان ظهور العدل انما هو من كمال العقل والعادل هو من عدل بين العباد ، وحذر من الجور والفساد . قال موسى – عليه السلام –: « ان الله تعالى لم يخلق شيئا فى الارض أفضل من العدل ، وهو ميزان الله فى ارضه فمن تعلق به اوصله الى الجنة » .

---

(١) هكذا الأصل .

/ ان عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - سأل محمد بن كعب . قال له : صف لى العدل . قال : « كل من كان أصغر منك سنا فكن له ابا ، ومن كان أكبر منك فكن له ابنا ، ومن كان مثلك فكن له اخا ، وعاقب كل مجرم على قدر جرمه ، واياك ان تضرب سوطا لمسلم على حقد منك فانه يصرك [1] الى النار ، فالعدل اول صفات الملوك الواجبة عليهم ، وكذلك العلم والسخاء والحلم والوفاء والرأفه والعقل والشجاعة والاقدام » .

« والثانى ، حسن الخلق ، وإنصاف الضعيف ، ومحبة الرعية ، وإظهار الزعامة والاحتمال والمدارات فى مكانها الرأى والتدبير فى الامور ، وحفظ سر الملوك الأولين التى يعتمد عليها ، والحفص [2] عن الامور التى يعتمدها وتعمل بها . فقد بقيت اثارهم واخبارهم تنزل عليهم فى الخير والشر .

ان اثرنا تدل علينا .. فانظر بعدنا الى الآثار

/ وكل انسان يذكر بما يفعل ، و ينسب الى ما كان يعمله ان كان خيرا فخيرا ، وان كان شرا فشرا . ويقال : ان الاسكندر ركب يوما فى موكب مملكته فقال بعض مقدميه : ان الله أعطاك ملكا عظيما فلو انك تستكثر من النساء فتكثر اولادك فتذكر بهم بعدك . فقال الاسكندر : ليس ذكر الرجال بعدهم بذكر الاولاد ، ولكن بالحسن وعدل السنة ، ورجل غلب رجال الدنيا لا يجوز بغلب النساء .

/ للملك الاعتناء بأمور الدين فقد قالوا : الدين والملك توأمان مثل اخوين ولدا فى بطن واحد فبحب الاسلام ولعزه (٣) ، و يجتهد فى إعادة السنة النبوية والسيرة المرضية ليحمد عن ذلك طريقه ، ويعظم فى القلوب هيبته . ويجب ان يعلم ان صلاح الناس فى حسن سيرة المملوك . قالت الحكماء : طباع الرعية تشبه طباع الملك .

/ قال محمد بن على بن الفضل (٤) : ما كنت أعلم ان أمور الرعية تجرى على

---

(١) هكذا الأصل والأصح : يوصلك - (٢) هكذا الأصل

(٣) هكذا الأصل . (٤) هكذا الأصل

عادة ملوكها حتى رأيت الناس فى أيام الوليد اشتغلوا بعمارة الكروم والبساتين واهتموا ببناء الدور وعمرة القصور . ورأيتهم فى زمن سليمان بن عبد العزيز قد اهتموا بكثرة الأكل والطعام حتى ان الرجل يسأل صاحبه أى لون اصطنعت وما الذى اكلت ، ورأيتهم فى زمن عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - قد اشتغلوا بالعبادة وتفرغوا لقراءة القرآن ، وأعمال الخيرات وإعطاء الصدقات ، فينبغى له ان يوزع الأوقات فان الملوك القدماء قسموا النهار أربعة أقسام ، قسم لعبادة الله وطاعته ، وقسم للنظر فى أمور المملكة وإنصاف المظلومين ، وقسم للجلوس مع العلماء والفضلاء وتدبير الامور وسياسة الجمهور ، وقسم للراحة وأخذ الحظوظ من الفرح والسرور والصيد واللعب .

/ وما أشبه ذلك ، ويقال ان بهرام وكور قسم نهاره قسمين وجعله نصفين . ففى النصف الاول كان يقضى جوانج (١) العالم وفى النصف الثانى كان يطلب راحة نفسه . ويقال : انه فى زمانه ما اشتغل يوما بشغل واحد وينبغى للملك ان لا يباشر الحرب بنفسه ، ويحفظ ناموسه ، ولكن كثيرا من الارباح يتعلق بروحه ، وصلاح الرعية فى حياته . ومن الامثال السائرة : الجوهر لايصارم . وكذلك ينبغى ان لا يجور على نفسه لئلا يجور على غيره ويجب ان يحترس وينام على فراشه غيره كل ليلة كما فعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليلة الغار . قيل ان بهرام ابن حشروا لما هرب وعسكره خوفا ان يصل قصره وعدوه اليه فقيل له : لا ينبغى للملك ان يهرب لئن همته جيدة متعلقة بهمته . فقال : لم أهرب الا لأخلص جماعة من اصحابى لانى لو هلكت لهلك بى طائفة من الخلائق ، فينبغى للملك بعهد أحول عماله ورعاياه ، ولا يرضا (٢) لهم بالظلم فانه مسئول عن افعالهم كما سئل عن فعل نفسه . قال الله تعالى : " وانذر عشيرتك الاقربين " قال ازدشر إذا كان الملك عاجزا عن صلاح خواصه ومنعهم عن

---

(١) هكذا الأصل والمقصود " حوائج "

(٢) هكذا الأصل والأصح " لا يرضى "

الظلم فكيف يقدر على ردهم الى الصلاح . وليس شئ أهيب فى قلوب العمال والرعية عن سهولة الحجاب . فإذا كان الملك سهل الحجاب لم يكن العمال يجوروا ، وضاقت الرعايا من جور بعضهم على بعض ، ومن سهولة الحجاب . / واجلسك مكان عثمان ذى النورين ، وانه يطلب منك مثل حياته ، فاكرمه ، وانزلك مكانه على بن ابى طالب ، ويطلب منك مثل عمله وزهده ، وعدله . فقال : زدنى . قال : نعم . ان الله تعالى جعل لاعدائه نارا اى داراً تعرف بجهنم . ، وانه قد جعلك بواب / تلك ، واعطاك ثلاثة اشياء : بيت المال ، والسيف ، والسوط ، وأمرك ان تمنع الناس من دخول النار بهذه الثلاثة . فمن حاك محتاجا ، ولايمنعه من بيت المال ، ومن خالف امر الله ، فادبه بالسوط . ومن قتل نفسا بغير حق فاقتله بالسيف . فان لم تعمل مأأمرك به فانك تكون الرغيم لاهل النار / يكون للملك اطلاع على سائر الاعمال ولا يكون الملك غافلا ليكون الهيبة عن ناموس المملكه باقية ، وذلك لا يحصل الا بالتيقظ ليستريح من الهموم الحادثة من الغفله . روى عن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – انه كتب الى عامله ابن (١) موسى الاشعرى .

/ امابعد . فان اسعد العمال من سعدت به رعيته ، واشقاهم من شقيت به رعيته . اياك والتبسط باموال المسلمين . فان رعيتك يقتدوا بك ، فانما مثلك مثل دابه ذات مرعى اخضر ، فاكلت وسمنت وكان سمنها هلاكها لانها عند سمنها تذبح وتؤكل . / وهذا كان دأب عمر بن الخطاب – رضى الله عنه ـ فى كتابه الى عماله ، وكذلك سائر الخلفاء – رضى الله عنهم – وينبغى للملك ان يحب لقاء الصلحاء ، والزهاد ، والاتقياء، ويحترم جنابهم ، ويعظم ثناءهم ويطلب منهم المواعظ كما كانت سائر الخلفاء تفعل . روى ان / شقيق البلخى مر على هارون الرشيد فقال : انت شقيق الزاهد . قال : أنا شقيق ولست بزاهد فقال : اوصينى . فقال : ان الله تعالى اقعدك مكان الصدق ، وانه يطلب منك مثل صدقة ، وانه أعطاك موضع عمر الفاروق ، ويطلب من الفرق بين الحق

---

(١) هكذا الأصل وصحتها " ابى موسى الاشعرى "

والباطل / اللهم أمتنا على الحق ، وانت راضى (١) عنا يارب العالمين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على النبى الامى ، وعلى آله ، وصحبه وسلم .

خاتمـــــة :

أقام الاسلام دولة منذ البداية ، كما أقام نظاما ، وأتت نصوصه وأحكامه بتنظيم لشئون الدين والدنيا . والتراث الاسلامى سيظل يستأثر باهتمام الباحثين فهو جزء من عبقرية الامة الاسلامية ، وأوقات الضعف التى أصابت هذه الأمة ، – والجدل المثار حول العلاقة بين قومية الأمة والاسلام – لا يعنى هذا أن الاسلام عربى فقط ، فالاسلام أعم وأشمل ، ولم يأت للعرب فقط ، فالعرب أقلية بين المسلمين ، ولكنهم أكبر أقلية بينهم ، وهناك علاقة خاصة بين الاسلام والعروبة كاللغة والتراث الفكرى .

والنتائج التى استخلصتها من دراسة هذا المخطوط القيم ، من وجهة نظرى ، تكمن فى أن عصر المماليك لا يعتبر شراً كله بالرغم من أن المماليك غرباء على حضارة المنطقة .

ومن هنا فان إخراج هذا المصدر الثمين هو انجاز لا بأس به فهو فضلا عن اعتباره النسخة الوحيدة ، فهى أيضا نسخة كاملة ، وواضح أن الناسخ كتبها على نظام الورقة، وقد كتبت المخطوطة بخط عربى واضح ، وكان لطبيعة تخصص الناسخ – وهو من طبقة المستجدة الملكى الاشرفى – أثر واضح فى ترتيبها .

ومن تحليل نص المخطوط يتضح أن مصر مرت بفترة كانت العقيدة الدينية وحدها هى الصلة بين الحاكم والمحكومين ، على حين أن الرابطة القومية كانت مبعث تناقض واختلاف بين الحاكمين من المماليك أنفسهم .

ومن منظور تاريخى ، فقد تم القضاء على الدولة المملوكية فى يناير عام ١٥١٧ م وذلك بهزيمة طومان باى – الذى يتعرض مخطوطنا هنا لسلفه قنصوه الغورى – . وكان طومان باى بذلك آخر سلاطين المماليك الذى هزم على يد السلطان العثمانى

---

(٢) هكذا الأصل وصحتها " راض "

دخوله القاهرة .

المؤلفات التاريخية التى ظهرت فى نهاية العصر المملوكى مثل كتاب " النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة " لجمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى ، وكتاب " بدائع الزهور فى وقائع الدهور " لمحمد بن احمد اياس .. هذان الكتابان يميل اسلوبهما الى استخدام العامية المنثورة . وبالمثل نلاحظ ذلك فى صياغة هذا المخطوط ومن الثابت أن تحقيق مثل هذه المخطوطات والوثائق وضبط أحداثها لتخرج فى صورة صحيحة تليق بها وتحفظ مصادر التاريخ والفكر الاسلامى - يحتاج ذلك الى تعاون الباحثين بصرف النظر عن جنسيتهم باعتبار ان التراث الاسلامى هو تراث للانسانية كلها .

خـــاتمـة

حاولت جهدى فى هذه الدراسة استعراض وتحليل جوانب المعر
ثنايا دور التدوين التاريخى والمخطوطات السياسية فى العالم الاسلا
للمزج بين التاريخ والسياسة وربط العلمين بعضهما بالآخر لما بينهما من
من النواحى من حيث مجال الاهتمام والقضايا التى يعالجها كل منهما .

إن ارتباط منهج عالم التاريخ وعالم السياسة يحتم بالضرورة تعاونا بينهما تعميقا للفائدة العلمية وزيادة فى توسيع دائرة البحث العلمى .

وقد ظهرخلال هذه الدراسة ومن ثنايا المخطوطات السياسية خاصة كيف يستخدم المؤرخ الظواهر السياسية حين يتعدى دوره من مجرد سرد احداث التاريخ الى فهم وتحليل تلك الأحداث والظواهر السياسية ولا شك من اهم مجالات علم السياسة كذلك وضحنا كيف يستخدم علم السياسة المنهج التاريخى كواحد من المناهج التى يلجأ إليها عند دراسته لعلم السياسة أو العلوم السياسية وهذا مما يؤكد الترابط بين علم السياسة وعلم التاريخ ، والى اى مدى ساهمت المعرفة التاريخية من ثنايا المخطوطات السياسية التى تم عرضها فى دور الجماهير الاسلامية فى الحياة السياسية .

ومن الثابت أن المناهج التى يستخدمها المؤرخ فى بحثه ودراسته لعلم التاريخ تفيد عالم السياسة عند دراسته وابحاثه فى مجال تخصصه ، وكذلك تفيد المناهج التى يتناولها عالم السياسة عالم التاريخ وتثرى تجربته فى بحثه وكتابته .

كذلك تبين من خلال هذه الدراسة تطابق بعض القضايا التى يدرسها المؤرخ وعالم السياسة ومن اهمها ان الاسلام دائما قد حافظ على إشراقه عبر العصور وكان دين الأغلبية وان التاريخ كانت صبغته مدنية وان العالم الاسلامى قد انفتح على الأمم الأخري مع الحفاظ علي خصوصية الحضارة الاسلامية وكيف سارت حركة التاريخ العربى الاسلامى فى توجهاتها الايجابية لصالح الشعوب الاسلامية .

وتجدر الأشارة أن هذه الدراسة ركزت بصفة اساسية على دور المؤرخين والفقهاء

المسلمين الذين عنوا بتلك القضايا ومن أهمهم ابن خلدون .

ان هذه الدراسة تقدم رؤية عملية لتجربة طويلة اكتسبت خلال العمل العلمى والدراسات الأكاديمية والتدريس الجامعى عبر سنوات طوال ، نضعها اليوم أمام الطلاب والباحثين لعلها تقدم فائدة نرجوها وتحقق نفعا يفيد من اللاحقون كما افدنا من أسلافنا الذين بذلوا جهودا مضنية اضاءوا لنا بها طريق البحث والمعرفة .

وتتعدد اساليب البحث وتختلف مناهج العلماء الا انها جميعا تؤدى الى نتيجة واحدة ، وهى اثراء الفكر الانسانى وتعميق المفاهيم العلمية ، ثم هى من بعد ذلك خطوة على طريق المعرفة ، ولبنة فى البناء الفكرى للانسان .

إن القيمة الفعلية لأيه دراسة جادة انما تتمثل فى المنهج الذى يتبعه القائمون عليها وكلما كان الباحث يسير وفق قواعد المنهج الأكاديمى كلما كانت الفائدة أعم وأشمل .

والله نسأل العون والتوفيق .

obeikandl.com